الصوفي والإحصاء

عبد الرحمن النابلسي

لملم ما استلمه من بيانات احصائية... بنماذج مختلفة.. حاول حشرها في الحقيبة الجلدية الصغيرة.. تمزّق بعضها.. دفعها قسرا.. أغلق الحقيبة.. وضعها تحت ابطه...

خرج لاعناً الساعة التي انتسب فيها إلى دورة احصائية..

هو لا ينكر.. استفاد منها درجتين في الوظيفة.. ولكن.. بعد أن طلعت عيناه بالطول والعرض.. في تمارين وجداول احصائية.. كان يتوه فيها..

وهو الذي لو سألته.. أيّ من المواد الدراسية تكرهها.. لقال لك.. الحساب.. ومنذ الصغر....

لم يكن يرى في طريقه.. كان يفكر.. بأيّ وجه شؤم تصبّح اليوم؟!... حتى نال ما نال.. من سخرية قاسية..

وممّن؟!.. من المدير العام.. نفسه..

وأمام من ؟!.. أمام زميلات وزملاء.. كانوا يخفون ضحكاتهم بين شفاههم الممطوطة.

ماذا فعل؟!.. هل خرّب الدنيا؟!...

كلفوه بالاحصاء في قرية صغيرة.. نائية...

بقي فيها أكثر من أسبوع.. أحصى كل شيء.. الكبير والصغير من السكان.. والدواب والماشية بأنواعها...

وضع عدد كلٍّ منها في الحقل المخصص لها.. لم يرتكب أي غلطة..

وعندما طلب منه رئيس الشعبة.. المجموع العام.. سهر على المطلوب.. وجمع الحقول كلها...

الرجال والنساء.. الأطفال والغنم.. الحمير والبقر.. الماعز والدجاج... وكان الناتج رقماً كبيراً... يشبع العين...

وفي صباح هذا اليوم... عندما سلم النتائج إلى رئيس الشعبة.. كاد يستلقي هذا على قفاه.. في ضحك متواصل لا انقطاع فيه...

وكلما دخل زميل الغرفة.. أبرز له رئيس الشعبة.. جهد ليلة بأكملها.. فيشاركه الضحك الساخر...

ووصلت إلى المدير العام..

وكانت نكتة.. لم يبق واحد لم يضحك منها.. إلا هو...

ما المضحك في الأمر؟!.. وأي ضير في هذا؟!...

ألا يوجد شعوب في العالم الثالث.. ما زالت تساق كالقطيع؟!...

يدفعونه إلى انتخابات مهيّأة النتائج؟!.. إلى مسيرات خُطِّط لها من قبل؟!.. إلى هتافات ضد أي شيء؟!...

وهناك شعوب.. ما زالت تشارك البهائم.. عملها.. حظائرها... ومواطنون في دول نامية.. تعيش على أغذية الكلاب المعلّبة.. نستوردها من أوربا.. قرأ عنها في مجلة لا يذكر اسمها...

عندما قال ذلك.. أمام الجميع.. انقطعت ضحكاتهم.. ثم اقترب منه المدير.. وضع يده على كتفه...

- اسمع يا خضر.. إن كنتَ أخطأتَ في فهم المطلوب من الجموع الاحصائية فالخطأ يُصحَّح.. أما.. إذا قصدتَ شيئاً آخر.. فالحساب ليس عندنا.. وإنما عند غيرنا...

وغمز برأسه وعينه وابهامه.. مشيراً إلى جهة ما.. في تحذير.. فهم معناه....

واعترف بأنه كان منذ صغره بهياً في الحساب.. يخاف من عملياته الأربع.. وخاصة الطرح والضرب...

ضحك بعدها الجميع.. وكانت نكتة أخرى..

* * *

مضى في الطريق.. إلى منطقة كلفوه بالاحصاء فيها..

لم يرسلوه إلى القرى.. بقي في المدينة...

وصل بعد مشقة.. وبعد سؤال الكثيرين..

فالمنطقة كبيرة.. واسعة كثيرة المنعطفات.. متعددة الاتجاهات.. والشارع المطلوب.. لا يعرفه أهل الحي.. إلا بشارع الصلاح.. واللائحة التي معه.. والصادرة عن المحافظة.. مسجل فيها... شارع الإصلاح الجديد.. وكاد يضيع بين الاسمين...

ما عليه؟!...

أحصى بناءين.. وكان البناء الثالث بآخر الشارع.. وسط أرض ملأى بالحفريات.. والقاذورات.. كانت بستاناً.. نزعوا أشجاره وداسوا خضرته.. وتركوه خراباً..

كبس جرس الطابق الأول باصبعه الوسطى..

لم يسمع الرنين.. الكهرباء مقطوعة...

دقّ بكفه على خشب الباب..

لم يرد أحد...

أعاد الدقّ بقوة...

بعد دقيقتين.. انفرج الباب عن رجل أربعيني.. حافي القدمين.. عاري الصدر بشعر رمادي منفوش.. وذقن مهملة الحلاقة.. لا يستره إلا سروال أبيض داخلي.. حتى الركبتين..

بهت خضر.. أدار وجهه.. معتذراً عن ازعاجه...

- لا تؤاخذني.. سأنتظر حتى ترتدي البقية من ثيابك...

- ليس هناك من بقية.. أنا دائماً هكذا في البيت...
لاحظ الاستغراب يموج على صفحة عيني خضر...
- لا تستغرب.. أنا صوفي. على مذهب سيدنا آدم.. ما تريد؟!...
ابتسم خضر.. أحب فيه بديهته الحاضرة.. تخلصه الذكي من الاحراج.. خفة دمه...
- أنا موظف الاحصاء...
- تشرفنا...
قالها.. دون أن يتزحزح عن فرجة الباب.. لم يدعه إلى الدخول كغيره من المواطنين.. ممّن أحصاهم...
استاء خضر...
رفع ساقه اليمنى على أول درجة من الطابق الثاني.. وضع الحقيبة فوقها..
أخرج الاستمارة.. سأل عن...
- الاسم؟...
- عبد العاطي بن زاهد الحافي... الشهير بالشاطر...
- اسم الزوجة؟...
- صبرية بنت عبد الودود...
- اسم الأولاد؟...
- وداد وخيرية ونهاية ومنتهى وختام.. وابراهيم وعائدة...
سأل عن الأعمار...
سجّل الاجابات...
أغلق الحقيبة.. تهيأ لصعود درجات الطابق الثاني....
صاح فيه الرجل...
- إلى أين يا أخ؟!...
- إلى جيرانك...
- لا تتعب نفسك.. فوقك.. تسكن زوجتي الثانية.. سجّل..
رجع خضر إلى وقفته... أخرج الاستمارة.. استكمل المعلومات.. الزوجة الثانية.. راضية بنت رضا.. الأولاد.. حفيظة ومحفوظ وحفيظ الدين.. وراضي ودلال ابنة الشهرين...
دفع بالاستمارة في المحفظة.. تهيّأ لاغلاقها...
صاح فيه الصوفي...
- ابق في مكانك.. وسجّل اسم الزوجة الثالثة..
- هل تمزح معي؟!..
- أنا لا أمزح.. زوجتي في الطابق الثالث.. اسمها وفيقة بنت حمدان.. وأولادي منها.. فادية وشادية.. وفادي وعمره أربعة أشهر ونصف.. عاد يسجل.. لم تتسّع الاستمارة الأولى.. أخرج استمارة ثانية... وقبل أن يتحرك للصعود... التفت إلى عبد العاطي..
قال ضاحكاً وبلهجة ساخرة...
- بالتأكيد.. الزوجة الرابعة في الطابق الرابع...
وبكلمات جادة.. سريعة النبرات...
- هذا صحيح.. سجّل إذا أردت اسمها...
- طوّل بالك.. والله دوختني...
فتش عن القلم.. لم يعرف في أي جيب وضعه..
وجده.. الاستمارة ما زالت فوق الحقيبة.. والحقيبة مسنودة على ساقه.. سجّل عن لسان زوج الأربع...
- الزوجة.. غازية بنت عبد الجبار.. وطفلها عبد القادر.. وهي حامل في الشهر الأخير...
وبملل يتمطي في صوت خضر...
- نضيف المولود.. في احصاء.. آخر..
أغلق الحقيبة.. حرك ساقه المتصلبة...
وقفة طويلة.. واحصاء غريب...
شدّ نظرة نحو الزوج الشاطر...
ودّعه صاعداً...
- السلام عليكم...
- وعليكم السلام.. إلى أين يا حبّوب؟!...
- إلى الملحق.. لاستكمال الاحصاء...
- انزل.. انزل...
كان في رأس خضر بقية من صبر.. وطارت...
صاح به...
- فهمنا.. زوجاتك الأربع الشرعيات.. انتهينا منهن.. استكملت دينك ونلت حقك الشرعي.. فمن يسكن في الملحق؟!...
لم يضحك الزوج.. كان جاداً...
- ارجع.. في الملحق سلطانة.. ونفيسة.. اثنتان مما ملكت يميني.. قال الله تعالى في كتابه العزيز (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع. فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة. أو ما ملكت أيمانكم).. وسلطانة ونفيسة.. ملكا يميني..
ضرب خضر الحقيبة على الأرض..
بحلق في الزوج الصوفي...
تعلقت نظراته بسرواله الأبيض الداخلي..
- لا تقل لي بأنك صوفي.. قل بأن لا وقت عندك لارتداء ملابسك.. طالع.. نازل.. من طابق للملحق.. ومن ملحق لطابق.. على حياكة أولاد...
غضب عبد العاطي الشهير بالشاطر.. أغلق الباب بإزعاج.. وهو يقول.
- غريب.. أما حشرى.. حسود...

* * *

خرج خضر من البناء...
وقف بعيداً عنه.. يتأمله...
- الله لا يعطيه العافية.. صار عمري فوق الثلاثين..
لا عروس عندي.. ولا مسكن حتى الآن.. وصاحبنا يرتع في قصر يلدز.. مثل السلطان عبد الحميد.. عنده أربع..وفوقهن.. ما ملكت يمينه.. ويقول لي.. «أنا صوفي».. الله لا يشبعه.. ما ترك الدور لأحد...

دمشق